دراسة في نص
"لأبي الطيب المتنبي"

بقلم الأستاذ الدكتور محمود محمد لبدة
عميد الكلية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واحر قلباه ممن قلبه شَبِمُ ... ومن بجسمى وحالى عنده سقم

مالى أكتّمُ حباً قد برى جسدى ... وتدعى حبّ سيف الدولة الأمم

إن كانَ يجمعنا حب لغرته ... فليت أنّا بقدر الحب نقتسم

قد زرته وسيوفُ الهند مغمدةٌ ... وقد نظرتُ إليه والسيوفُ دم

فكان أحسنَ خلق الله كلهم ... وكان أحسن ما فى الأحسن الشّيَم

فَوْتُ العدُوّ الذى يَمّمْتَهُ ظفر ... فى طيه أسف ، فى طيه نِعَم

قد ناب عنك شديدُ الخوف واصطنعت ... لك المهابة ما لا تصنع البُهَم

ألزمتَ نفسك شيئاً ليس يلزمها ... ألاّ يواريَهُم أرض ولا عَلَم

أكُلّما رُمْتَ جيشاً فانثنى هرباً ... تصرفتْ بك فى آثاره الهمم

عليك هزْمُهُم فى كل معترك ... وما عليك بهم عار إذا انهزموا

أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر ... تصافحتْ فيه بيضُ الهند واللِّمَمُ

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وجاهل مَدّهُ فى جهله ضحكى ... حتى أتته يد فراسة وفم

إذا نظرت نُيُوبَ اللّيْثِ بارزة ... فلا تظنّنّ أن الليث مبتسم

ومهجة مهجتى من همّ صاحبها ... أدركتُها بجوادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ

رجلاه فى الركض رِجْلٌ واليدان يد ... وفعله ما تريد الكف والقدم

ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلين به ... حتى ضربتُ وموج الموت يلتطم

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والضرب والطعن والقرطاس والقلم

صحبتُ فى الفلواتِ الوحش منفرداً ... حتى تعجب منى القُوْرُ والأُكَمُ

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وِجْدَانُنَا كل شىء بعدكم عدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرِمَةٍ ... لو أن أمركم من أمرنا أَمَمُ

إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفةٌ ... إن المعارف فى أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الذى عندى صواعقه ... يزيلهن إلى من عنده الدِّيَم

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخّادة الرسم

لئن تركن ضميراً عن ميامننا ... ليحدثَنَّ لمن ودعتهم ندم

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون هم

شر البلاد بلاد لا صديق بها ... وشر ما يكسِبُ الإنسان مايَصِمُ

وشر ما قَنَصَتْهُ راحتى قنص ... شهْبُ البُزَاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ

بأى لفظ تقول الشعر زِعْنِفَةٌ ... تجوز عندك لا عربٌ ولا عجم

هذا عنابك إلاَّ أنه مِقَةٌ ... قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنه كَلِمُ

لهذه القصيدة قصة ، ولها أيضاً منزلة ومكانة .

أما قصتها فقد وردت فى كتب الأدب بروايات مختلفة ، تنتهى كلها إلى غاية واحدة وتؤدى مؤدى واحداً هو :

أن أبا الطيب المتنبى كان محسوداً ، ومصدر الحسد فى تصورى لا يرجع فقط إلى مكانته التى تبوأ بها عرش قلوب الأمراء والخلفاء والوزراء ، وبذ بها فطاحل الشعراء واللغويين والأدباء فتلك نتيجة طبيعية ومحصلة نهائية ، وإنما ترجع إلى ملكته البيانية واللغوية التى جعلت اللغة تحت يده ، تنبض بنبضه ، وتحس بإحساسه ، وتنتهى إلى ما انتهت إليه قوة نفسه الشاعرة من إرادة واقتدار وذكاء وطبع . وإلى عجز الشعراء عن مجاراته أو مداناته أو محاكاته ، وكأنه بحر لجى عميق رجاف واسع ، من اقترب منه ، أو حاول السباحة فيه ، زلت قدمه ، وخانته موهبته ، وأدركه الغرق .

وإلى الرهبة التى نشأت فى نفوسهم منه إذا جمعتهم المجامع ، مما يجعل بيانهم يفر منهزما ، ويسقط مذعوراً إذا أنشدوا وأنشد ، وقالوا وقال ، وفرق كبير بين شاعر يدير بيانه على نحو من الفصاحة اللسانية وآخر يضع نفسه فى الشعر ليكون بيانا حيا ، وجلالا موحياً ، وأحر بشاعر - على الرغم من ثقته بنفسه وفتنته بشعره - لا يذيع قصيدته إلا إذا كان قد انقطع لعملها ، وتوفر لإعدادها وأعد عدته كلها لإخراجها ، معدلة ، مجودة ، مصقولة .

أقول : أحر به أن يلقى شعره على اختلاف أغراضه ، وتنوع موضوعاته موقعا يجعل كل شعر دونه ، وكل بيان أنزل منه ، وأن يلقى هو منزلة تنحو

غيره وتبعده بقدر ما تدنيه هو وتقربه ومكانة تحل له ما حرم على غيره وتسوغ له ما منع عن سواه .

وأصدق مثال على ذلك ما روى من أن سيف الدولة كان (يميل إلى أبى العباس النامى الشاعر المشهور ميلا شديداً ، إلى أن جاءه المتنبى فمال عنه إليه ، فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم ، خلا به وعاتبه وقال : كم تفضل علىّ ابن عبدان السقاء . فأمسك سيف الدولة ولم يجبه ، فلج وألح عليه وطالبه بالجواب فقال له : لأنك لا تحسن أن تقول :

يعود من كل فتح غير مفتخر وقد أغذ إليه غير محتفل

قال (أى راوى القصة) : فنهض من بين يديه مغضبا ، واعتقد أن لا يمدحه أبداً)[1] .

وما روى من أن السرى الرفاء حين قصد سيف الدولة أنشده بديها :

إنى رأيتك جالسا فى مجلس قعد الملوك به لديك وقاموا

فكأنك الدهر المحيط عليهم وكأنهم من حولك الأيام

ثم أنشده ، بعد ذلك ما كان قاله فيه من الشعر ، وبعد ثلاثة أيام أنشده المتنبى قصيدة قافية ، فأمر له بفرس وجارية ، وأول القصيدة :

أيدرى الربع أى دم أرافا وأى قلوب هذا الركب شاقا

لنا ولأهله أبدا قلوب تلاقى فى جسوم ما تلاقى

وما عفت الرياح له محلا عفاه من حدا بهم وساقا

---

(١) المتنبى لمحمود شاكر ص ٦٦٦ ، والصبح المنبى عن حيثية المتنبى ص ٤٠

فلوت هوى الأحبة كان عدلا ... لحمل كل قلب ما أطاقا

نظرت إليهم والعين شكرى ... فصارت كلها للدمع ماقا

وقد أخذ التمام البدر فيهم ... وأعطانى من السقم المحاقا

وبين الفرع والقدمين نور ... يقود بلا أزمتها النياقا

وطرف إن سقى العشاق كأسا ... بها نقص سقانيها دهاقا

فلما قال :

وخصر تثبت الأبصار فيه ... كأن عليه من حدق نطاقا

فقال السرى : هـذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ، ومما يقال : إنه حم فى الحال حسدا ، وتحامل إلى منزله ، ومات بعد ثلاثة أيام ، فلا صحة له ، لأن السرى قد استعمل هذا المعنى بقوله :

أحاطت عيون العاشقين بخصره ... فهن له دون النطاق نطاق[(١)]

وما روى من أنه اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد ، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ، فنسب إلى الجنون ، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلع إلى ما يرد منه ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة[(٢)] .

فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا «أبا العشائر» الحسين بن على بن الحسين ابن حمدان يحسد المتنبى لما رآه من قوى الفكر ، وإلهام النفس ، وامتياز الطبع ونفاذ البصيرة ، وهو أول من لقيه من بنى حمدان ، وأول من أكرم

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبى ص ٣١ ، ٤٠ والديوان ٢/٢٩٤، ٢٩٥

(٢) السابق : ص ٣٥ .

وفادته ، وأحسن إليه ، وأول من مدحه المتنبى من هذا العنصر العربى الكريم بقصيدته التى أولها :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة فى المآقى

وهو الذى قدمه إلى سيف الدولة فى « أنطاكية » وكان أبو العشائر واليا عليها ، وأثنى عنده إليه ، وعرفه منزلته من الشعر والأدب .

ولا عجب أيضا إذا رأينا « أبا فراس » الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبى ، وهو من هو فروسية وشجاعة وشاعرية ، يحسد المتنبى منزلته ومكانته وشاعريته ، وجنون عظمته ، وحديد كبريائه ، ويريد أن يوقع بينه وبين سيف الدولة وذلك حين قاطعه أكثر من مرة فى قصيدته العصماء التى بين أيدينا والتى أنشدها فى مجلس « سيف الدولة الحمدانى » .

فإذا قال المتنبى :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

قاطعه أبو فراس قائلا : مسخت قول «دعبل» وادعيته وهو :

ولست أرجو انتصافا منك ما ذرفت عينى دموعا وأنت الخصم والحكم

وإذا قال المتنبى :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

علم أبو فراس أنه يعنيه فقال : ومن أنت يا دعى كندة حتى تأخذ أعراض الأمير فى مجلسه ؟

وإذا قال المتنبى :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنى خير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

اغتاظ أبو فراس وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد في قوله :

وأوضحت من طرق الآداب ما اشتبكات دهرا وأظهرت إغرابا وابداعا
حتى فتحت بإعجاز خصصت به للعمى والصم أبصارا وأسماعا

وإذا قال المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال أبو فراس وماذا أبقيت للأمير ، إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الأمير ؟!

أما سرقت هذا من قول الهيثم بن الأسود النخعي الكوفي المعروف بابن عريان العثماني :

أعاذلتي كم مهمه قد قطعته أليف وحوش ساكنا غير هائب
أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى وجرد المذاكي والقنا والقواضب
حليم وقور في البلاد وهيبتي لها في قلوب الناس بطش الكتائب

وإذا قال المتنبي :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

قال أبو فراس : وهذا سرقته من قول معجل العجلي :

إذا لم أميز بين نور وظلمة بعيني فالعينان زور وباطل

كل هذا والمتنبي مستمر فى إنشاده ، لايلتفت إلى أبى فراس واعتراضاته ولا إلى عيون الشامتين والحاقدين فى مجلس سيف الدولة ، لأنه لايتحداهم فقط إنما يتحداهم ، ويتحدى سيف الدولة نفسه ، وأبو فراس قريعه وعدوه فى ذلك المجلس إذ يقول :

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ماتأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى

أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم[1]

وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته فى هذه القصيدة ، وكثرة دعاويه فيها فضربه بالدواة التى بين يديه فقال المتنبى فى الحال :

إن كان سركم ماقال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

فقال أبو فراس ، أخذت هذا من قول بشار :

إذا رضيتم بأن نجفى وسركم قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجر

ومثله قول ابن الرومى :

إذا ما الفجائع أكسبتنى رضاك فما الدهر بالفاجع

فلم يلتفت سيف الدولة إلى ماقال أبو فراس ، وأعجبه بيت المتنبى ، ورضى عنه فى الحال ، وأدناه إليه ، وقبل رأسه ، وأجازه بألف دينار ، ثم أردفه بألف أخرى ، فقال المتنبى :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلة ألفا على ألف

---

(١) المتنبى لمحمود شاكر ص ١٦٠

أشبهها فعلك فى فيلق قلبته صفا على صف[١]

وهكذا فوت أبو الطيب المتنبى الفرصة على شانئيه ، وكسب رضا (سيف الدولة) الحمدانى ، وصعد فى تيه واستعلاء ، وصمت فى سخرية وازدراء ، وصمم سهامه فى بيان تنقطع دون اللحاق به أنفاس عظماء الشعراء (وقد أدرك المتنبى سر الشعر وأنه قائم على تحويل الشعور الانسانى إلى معرفة إنسانية ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يمحى من العربية مابقيت ، ولكن حكمته الإنسانية ، ودقة أوصافه ، وإقامته الفضائل والرذائل فى كالها الفنى مقام تماثيل بارعة من الجمال ، كل ذلك ترك شعره مستمرا باستمرار الحياة ، وباستمرار الإنسانية ، وباستمرار الذوق)[٢]

وأنى له بغير هذا الأسلوب وهو صاحب القلب الشاعر « وضعت فيه الدنيا حكمتها ، وطوت فيه القوة سرها ، وبث فيه الجمال وحيه»[٣]

لقد كان المتنبى يطمح إلى الرياسة والملك فلما عجز عن تحقيق ذلك أحل محلها دولة من الشعر الفخم ، والبيان المتوج .

وكان يحب المال حبا جما ، فقطع فى سبيل جمعه دابر كل حيلة حيكت له ومؤامرة دبرت للقضاء عليه .

وكان واسع النظرة ، عميق الفكرة ، دقيق الفلسفة فجاء شعره تعبيرا

---

(١) الصبح المنبى ص ٤٨و٤٨

(٢) وحى القلم ٣/٢٧٣

(٣) السابق ص ٢٧١

عما يحسه ولكنه الصراحة المشوبة بالحذر، والبيان الملتف فى ثوب الغموض، والاستعطاف المكسو رداء العزة .

وكان بعيد المدى ، كبير الأمل « فجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة فى صورة من صور الإمكان اللغوى»[١] وبالجملة « لقد كان نفسا عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت ، فكأنما جعلها بذلك زمنا يمتد فى الزمن »[٢]

وكنت قد هممت برد الرواية التى ذكرت أن أبا عبد الله بن خالويه النحوى ضرب المتنبى فى حضرة (سيف الدولة) بمفتاح حديدى ضربة أسالت دمه على وجهه وثيابه « فغضب المتنبى لذلك إذ لم ينتصر له سيف الدولة »[٣] .

بيد أنى عدلت عن رأيى إذ وجدت تلك الرواية تعكس معانى العظمة اللغوية فى تلك العقلية الكبيرة ، والفلتة البيانية المفردة أكثر مما تعكسه من معانى الإهانة التى انقلبت إلى الضد فصارت سامد عز ومجد .

فالمتنبى الذى أخمل الشعراء ، وألوى أعناقهم ، وقطع أرزاقهم حتى صاروا جميعا حساده ، وشكا هو من ذلك شكوى الفخر لاشكوى الذل والقهر حين قال :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حُسَّدا[٤]

(٢،١) السابق ص ٣٧٠

(٣) المصبح المنبى ص ٤٥

(٤) الديوان ١/٢٨٩

وقوله :

وللحساد عذر أن يشحوا على نظرى إليه وأن يذوبوا (١)
فإنى قد وصلت إلى مكان عليه تحسد الحدق القلوب

هو الذى تكلم فى المسألة اللغوية بما يقطع رزق ابن خالويه ، ويسقطه فى مجلس سيف الدولة بل فى عين سيف الدولة نفسه سقطات لاسقطة واحدة . ولعل (سيف الدولة) أدرك رد الفعل فى نفس ابن خالويه حين ضرب المتنبى أمامه ضربة أسالت دمه ، فكان سكوته شفاء لنفس ابن خالويه المغتاظة المهتاجة ، وكفى بالمتنبى انتصار رأى ، وجلاء عارضة ، وقوة فكر .

وهذا من حكمة (سيف الدولة) الذى كان معجبا بالمتنبى إلى حد الانبهار ، والذى شغف حبا بمدائحه حتى إنه ليود أن يسمع منه كل يوم قصيدة فى مدحه .

وكان المتنبى يعلم ذلك ، ويعتذر عنه ، وذلك فى قوله :

وما كان ترك الشعر إلا لأنه تقصر عن وصف الأمير المدائح (٢)

وأما منزلة تلك القصيدة ، فهى من عيون الشعر كله عامة ، وشعر المتنبى خاصة ، جمعت أكثر من غرض من غير خروج عن الدواعى التى

---

(١) الديوان ١/٧٥

(٢) الديوان ٢/٢٤١ وانظر ذكرى أبى الطيب بعد الف عام لعبد الوهاب عزام ص ٩٣)

بثها ، والروح التى نشرتها ، وبدأت بالغرض المقصود مباشرة فى براعة استهلال وحسن مطلع ، وحددت أمد علاقة وإقامة استمرت ثمانى حجج من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٥ هـ .

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة ... لاتستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا صديق بها ... وشر مايكسب الإنسان مايصم
وشر ماقنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

وكانت مفترق طرق فى حياة المتنبى نفسه ، لأنه يطمع فيما هو أكثر من المال ، وهو الإمارة أو الولاية ، ويرى نفسه أهلا لذلك ، وأولى وأحق ممن هو دونه بها . أما وقد حدث له ماحدث فى مجلس سيف الدولة ، وسيف الدولة ساكت فإن العدول عن المقام إلى الرحيل أمر لابد منه ، مهما كانت مغناطيسية سيف الدولة للشعراء لأن تحقق رغبة المتنبى ، أو مجرد أمله فى ولاية أو إمارة ، يعد من قبيل المستحيل العقلى ، ولأن مثار العبقرية فى طبيعته المعطاءة الفياضة لايوجد فى بلاط سيف الدولة وحده وإنما يوجد فى أى مكان يحل فيه موجها على الحق أو معدولا به عنه ، وما أرى المتنبى إلا قال كل ما أراد أن يقوله بصيغة التصريح لا التلويح ، والصحة لا التمريض ، والقوة المتأبية لا العجز المستخذى .

وفى تصورى بل أكاد أجزم أن المدة التى قضاها المتنبى بعد إعداده هذه القصيدة ، وإنشادها فى مجلس سيف الدولة ، لم يكن الغرض منها

ترويض نفسه على الإقامة ، أو محاولة التناسى لما حدث ؛ وإنما كانت من باب الحيلة العاقلة حتى يخرج خروج الكرامة لا المهانة ، والنصر لا الهزيمة وقد كان له ما أراد ، فإن غلمان أبى العشائر حينما تصدوا له ، وباءت محاولتهم قتله بالفشل عقب إنشاده قصيدته الميمية عاد إلى المدينة مستخفيا ، وراسل سيف الدولة وكتب إليه مقطوعته الشهيرة :

ألا ماالسيف الدولة اليوم عاتبا فداه الورى أمضى السيوف مضاربا
ومالي إذا ماالشتقت أبصرت دونه تنائف لا أشتاقهـا وسباسبا
وقد كان يدنى مجلسى من سمائه أحادث فيها بدرها والكواكبا
حنانيك مسئولا ، ولبيك داعيا وحسبى موهوبا وحسبك واهبا
أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقا أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا ؟
وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه محا الذنب كل المحو من جاء تائبا[1]

فلما دخل على الأمير بعد أن خُلع عليه وطيب ، وسأله الأمير عن حاله قال له المتنبى : رأيت الموت عندك أحب من الحياة عند غيرك .

فقال الأمير : بل أطال الله بقاءك .

ثم ركب أبو الطيب ، وركب معه جماعة كثيرة ، وأتبعه الأمير هدايا .

فأنشد المتنبى قصيدته التى مطلعها :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والإبل

(١) للديوان ١/٧٠ وراجع ذكرى أبى الطيب الوهاب عزام ص ٩٥

وتعد الميمية - من وجهة نظرى - آخر ما أنشده المتنبى فى سيف الدولة ، وأما قصائده التى أنشدها فيه بعد ذلك ، فهى من باب التوقى من شره إذا هو عاداه ، أو أعلن عداءه له ، وهى كذلك من باب الاستجلاب لخيره إذا هو منحه وأفاض عليه .

ولكن الشيخ « محمود شاكر » يرى أن أبا الطيب (فارق سيف الدولة وهو لايزال ثابتا على محبته ، والإخلاص له وكان سيف الدولة لايزال مستقصيا لأخباره فى كل بلد ينزله ، متتبعا لشعره الذى يقوله لكل من مدحه بعده ، وكان أيضا لايزال يهدى إليه من هداياه ، مع أنه فارقه ومدح غيره بعد إكرامه له إكراما لم يلق مثله أبو الطيب قبل اتصاله به ، وكان أيضا يكاتبه ، ويتلقى منه بعض كتبه ، وكل هذا دليل على أن المحبة التى كانت بين الرجلين ، لم تكن محبة أمير لشاعره وحسب بل كانت صداقة لاينقطع فيها حدث من أحداث الزمان ، أو سعى الوشاة والمتقولين)[1]

وذهب الأستاذ الكبير يدلل على صدق دعواه بما فيه المقنع والكفاية من وجهة نظره ، ثم ينهى سياحته الفكرية التى يدلل بها على صدق مقولته بقوله :

« فهذا الذى أفضنا فيه دليل كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبى الطيب أسرار سياسية تخص أغراضهما وآمالهما فى إعادة المجد العربى وإزالة الحكام الطاغين من الموالى ، وقمع الفتن التى قام بها العلويون

---

(١) المتنبى لمحمود شاكر ص ٣٢٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والفاطميون فى البلاد وهم لايقدرون مغباتها وعواقبها ولايزنون أمرها ؛ إذ يتخذها أعداء العرب والإسلام ذرائع لقضاء مآربهم فى تمزيق الأمة ، وتفريق شملها وإضاعة مجدها وسلطانها ؛ ليقيموا على أنقاضها ماتسوله لهم أحقادهم وضغائنهم من الأوهام والأحلام ، وحسبك دلالة على ماقلناه أنه قال له (فسمعا لأمر أمير العرب) فتسميته سيف الدولة (أمير العرب) تعريض ظاهر الدلالة على مافى نفس أبى الطيب من صفة هذا الشجاع المحارب صفة نجب كل صفة » .

وقوله (فسمعا لأمر أمير العرب) من وجهة نظرى كذلك ، سلاح ذوحدين فهو صفة مدح تصريحا ؛ لأنها حقيقة واقعة بعد أن تمزق الجسم الإسلامى الكبير إلى جسوم كثيرة .

واستولى الأعاجم على السلطة والإمارة ، وطمع فيها من لايقدر أن يدافع عن نفسه .

وصفة قدح تلويحا لأنه هو السبب فى إقصاء المتنبى عن مجلسه ، وعيشه عند من لايؤمن المتنبى به إلا بلسانه فقط أمثال كافور الاخشيدى ورواية الصبح المنبى تؤيد ماذهبنا إليه . قال أبو الفتح بن جنى : كنت قرأت ديوان المتنبى عليه ، فلما وصلت إلى قوله :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

فلما انتهيت إلى قوله :

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب
ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة ولا أشتكى فيها ولا أتعتب
وبى مايذود الشعر عنى أقله ولكن قلبى يابنة القوم قلب

وأخلاق كافور إذا شئت مدحة وإن لم أشأ تملى على وأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ويمم كافوراً فما يتغرب

فقلت له : يعز على أن يكون هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة فقال: حذرناه وأنذرناه ، فما نفع فيه الحذر ، ألست القائل فيه :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالكه ولا تعطين الناس ما أنا قائله

فهو الذى أعطانى لكافور بسوء تدبيره ، وقلة تمييزه[1] .

ورواية الصبح المنبى تعطى ملمحا آخر ، وبعداً كيديا قبل أن يكون فنيا ؛ فتجويد المتنبى قصائده فى كافور ، ليس حبا فى كافور ، ولا اعترافا بفضله وأصله وكرمه وإنما هى إغاظة لسيف اسولة ، ومنبهة له على زلته التى ارتكبها فى حق المتنبى حين لم يثأر له من ابن خالويه ، ولم ينصفه من أبى العشائر ، وأبى فراس ولم يتمسك به شاعرا مجودا ، وموهوبا مفلقاً ، وعربيا متعصبا ، ومبدعا جعل كل الشعراء ممن عاصره أو أتى بعده كالظل لا وجود له من نفسه ، وهو ممسوخ أبدا إلا فى الندرة حين يسطع فى مرآة صافية .

وداعية من دواعى تعلق سيف الدولة بهذا الشاعر العظيم الذى راغم الشعراء جميعا ، ويعد وحده دولة من البيان والفكر والبرهان .

ومعنى هذا أن شيئا من الوخز هو الذى كان يحرك نفسية أبى الطيب المتنبى دائما نحو الولاء لسيف الدولة مهما صنع معه ، ومهما كان منه من عوار أو نقص أو تقصير ؛ لأن عيشه فى كنف سيف الدولة ولو كان مشوبا بشىء من الأذى أحب إلى نفسه ، وأهنأ لقلبه من العيش مكرما فى ظل

(١) الصبح المنبى ص ٥٢ ، ٥٤

كافور أو البويهيين أو الإخشيديين أو أمراء الدويلات الذين تسنموا ذروة ما كانوا أصحابها إلا بسلاح الغدر ولا أهلا لها إلا بأسلوب الوقيعة.

ولأن يلحقه الأذى من سيف الدولة خير ألف مرة من أدنى أذى من كافور وأمثاله وفى النهاية تجبره كبرياؤه على أن يكون جوال آفاق، بدلا من أن يعيش رهينة أذى وأحقاد، ولا يجد من ينصفه ويحميه، حتى لو كان أقرب الناس منه قلبا.

وكان رحيل المتنبى من الشام إلى مصر سنة ٣٤٦ من أكبر القواصم للدولة الحمدانية كلها عامة ولسيف الدولة الحمدانى خاصة؛ فقد كان المتنبى وحده بإلوحاته البيانية الناطقة، وآرائه وأفكاره وتوجيهاته يغنى عن جميع الشعراء المستظلين بظل سيف الدولة والقواد المؤتمرين بأمره العاملين على مرضاته وطاعته، فهو يعد لهم جميعا فقد (استصفاه سيف الدولة، ومنحه بشره وقربه، وامتد الحديث بينهما فى بعض الخلوات عن شئون الدولة، وما وقع فيها، وما أدركها من الضعف والوهن، وما كان لوقته من أسباب ذلك ورأى سيف الدولة أن محدثه رجل داهية بصير محنك قد نجذته الحوادث، وله رأى ومعرفة وأسرار قد استجدها بعد اللقاء الأول فى سنة ٣٢١ . . .

وكان ذلك عجبا فى أنطاقية وغيرها، لما عرف من صرامة سيف الدولة ونحرزه وتشدده حتى على الكثير من أهله[1]).

ورحيل المتنبى إلى مصر سنة ٣٤٦ هـ وكان أمل فيها ما يرجوه من السلطان والمجد رحل عن سيف الدولة تاج أخلد من تاج عرشه وسلطانه

---

(١) المتنبى لمحمود شاكر ص ٣١٧

فليت سيوفك فى حاسد إذا ما ظهرت عليهم كئب
وليت شكاتك فى جسمه وليتك تجزى ببغض وحب
فلو كنت تجزى به نلت منـ ـك أضعف حظ بأقوى سبب (١)

وعرض به مرة ثالثة بل هو إلى التعريض بحاشية السوء ، ومن كانوا سببا فى تلك الهوة السحيقة التى تركت فراغا لا يسد ، وجرحا لا يندمل فى نفس المتنبى أقرب .

ففى القصيدة التى كتبها المتنبى إلى سيف الدولة سنة ٣٥١ ، وأرسلها إليه من الكوفة إلى حلب ، وكانت تحية بتحية ، وردا برد ، إذ أرسل سيف الدولة إليه هدية فرد عليه المتنبى يشكره ، يقول .

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبيك تميل (٢)

والغزل الذى فى بداية القصيدة من وجهة نظرى رمز واضح ، مراد به سيف الدولة نفسه ، تدل على هذا الرمز جميع الظروف التى أنشأ فيها المتنبى هذه القصيدة وفيها يشكو قلبه المضنى ، وتباريح وجدانه المعنى :

ما لنا كلنا جو يا رسول أنا أهوى وقلبك المتبول
كلما عاد من بعثت إليها غار منى ، وخان فيما يقول
أفسدت بيننا الأمانات عيناها وخانت قلوبهن العقول
تشتكى ما اشتكيت من طرب الشو ق إليها ، والشوق حيث النحول

---

(١) الديوان ١٠٤/١
(٢) الديون ١٥٧/٣

وإذا خامر الهوى قلب صب فعليه لكل عين دليل
زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حال تحول
وصليني نصلك فى هذه الدنـ ـيا فإن المقام فيها قليل[1]

ذكرت من قبل أن المتنبي انقطع عن مجلس سيف الدولة بعد أن حدث بينه وبين ابن خالويه ماحدث ولم يكن انقطاعه انقطاع هزيمة وانكسار، فتقر بذلك عيون الشامتين والحاسدين ، وإنما كان انقطاع من يتهيأ للوثوب والانقضاض واختراق الحواجز التى نسجتها أكاذيب الوشاة بينه وبين سيف الدولة ، فكانت ميميته الرائعة التى أنشدها بين يدى سيف الدولة، وضمنها كل ما أراد من الحب والكبرياء ، والتصريح والتلويح ، والإنذار والوعيد ، والفخر والزهر بالنفس ، هى نتائج الانقطاع ، وثمرة التفكير والتدبير ، وترويحة الحكيم الذى يمتد بقلبه وفكره وجميع حواسه من المنظور إلى غير المنظور ، ونفثة المحب العاشق الذى غلب الحب على قلبه فهانت أمامه جميع الشدائد والصعاب .

ولكن رواية الصبح المنبى الخاصة بإنشاد المتنبى هذه القصيدة فى مجلس سيف الدولة تكشف النقاب عن جوهر هذه القصيدة ، وأن لها أما قبل وأما بعد .

أما قبل فى الأبيات التى نظمها وجودها ، وأتقن رصفها وسبكها قبل دخوله على سيف الدولة ، وفى الحين الذى انقطع عنه فيه .

وأما بعد فى الأبيات التى فرضها الموقف ، وصنعتها التجربة الشعورية

---

(١) الديوان ٣/١٤٨ ، ١٤٩

ولكن المتنبي البحر الرجاف الهادر والموج المتلاطم الثائر الذى يعرف قصد أبى فراس ، يستمر فى إنشاده دون توقف . ولا يلتفت إلى أبى فراس ولا يثنى لبيانه عنانا ، لأنه يعلم أن المعانى تعاد ؛ ولولا أنها تعاد لنفدت ، كما يعلم أن العبرة بملكة التوليد ، التى تمر العبارة الفنية فيها بدورة الخلق والتركيب لتنشئها خلقا جديدا أكبر وأقوى وأدل مما كانت عليه .

ويثق بملكته الفنية التى تؤمن ليس فقط بالإبداع ، والوصول إلى ما هو أكمل وأجمل وأدق وأوفى ، وإنما تؤمن بأن كثرة الصور البيانية الجميلة للحقيقة الواحدة الجميلة هى السبيل الممكنة لعرضها على الفكر الإنسانى فى معارض مختلفة . وأشعة مؤتلفة ، ولا ضير أن تكون فى بعضها ومضة ، وفى بعضها الآخر ضياء وأشعة .

بل لا ضير أن تكون فى شعر شاعر لمحة خاطفة . وفى شعر آخر حقيقة فواحة ناضرة بل لا ضير أن يكشف النقاب عنها شاعر ، ثم يصوغها فى أشكال مختلفة شاعر أو شعراء آخرون ، فالفضل ليس لمن سبق ، وإنما هو أيضا لمن أخذ وصاغ وتفوق .

وإذا كان لبعض الغواصين فضل العثور على الدر فى محارته ؛ فإن للصناع المهرة فضل الصياغة والنقش والتفويف والتحبير .

أما جماع ما أشارت إليه القصيدة من معانى الحب والكبرياء والفخر والترضى والوعيد فجمالها أنها جاءت مبثوثة فى تضاعيف القصيدة . آخذا بعضها بحجز بعض .

وجمالها أيضا أنها تأتى منفردة باعتبار ، وتأتى مجموعة فى بيت أو فى عدة أبيات باعتبار آخر وهكذا فتطوى وتنشر وتجمع وتفرق وما يزيدها الطى والنشر أو الجمع والتفريق إلا ما يزيده الأجنحة للطير صافات ويقبضن من جمال وبهاء وجلال .

والمعنى الذى يوحى به عنوان هذا المقال يقود إلى نوعين من الدراسة ، أولهما : دواسة الظروف التى عاشها الشاعر ، وكان لها الفضل الأول فى تفجير قرائح العبقرية والإلهام بهذه الجواهر البيانيـة التى سجلت قصة ، ورصدت تاريخا ، وأعلنت عن هذا المنجم الغنى ، والمعدن النفيس ، والقمة الشامخة ، التى تركت بصماتها القوية غائرة فى جدار الزمن لتكون رمز العظمة الإنسانيه حين تنطلق مسجلة شعورها ، واضعة فى أوسع الآماد ، وأرفع الآفاق معانيها ، قائلة إن الشعر ليس شعوذة لفظية ، ولا ولعا بالمحسنات البديعية ، وليس نغمة هزيلة تحدث صوتا منكرا فى مواكب النفاق ، وليس صدى لحس مزيف وشعور فاتر بارد حتى لو جرى على مقاييس الآداب الصحيحة ، وإنما هو نبض الإنسانية ، وخفق حياتها فى شعور عبقرى اجتمعت له ملكة الفن ، ووحى القصيد .

ونبض الشاعر نفسه ، وخفق حياته التى عاشها ، وبلى حلوها ومرها ، وعبر فى همس رقيق أو فى جلجلة مدوية عن آماله وآلامه فيها .

وثانيهما : دراسة النص نفسه دراسة فنية تكشف عن كل مخبوء وراء المعانى يستحق أن يكشف عنه ويستمع إليه .

وتدل على مدى المواءمة النسبية بين شاعرية الحس وشاعرية الروح والنفس ، وتغلب الثانية لأنها من عالم لاحد لسبحاته الخيالية ، وانطلاقاته

الفكرية والتأملية على الأولى لأنها من عالم الواقع المقيد والحس المحدود .

وتكون دليلا على الشعر الذى يستحق قائله التقدير والإعجاب ؛ لا لأنه شاعر وإنما لأنه موقف وكرامة موقف استنطق وحى الشاعرية على نهج لم يسبق إليه ، وكرامة جاشت بفيض الشعور ، ونقلت القارىء فى كل عصر إلى منزلة من منازل إحساسه أو إلى قمة منازل إحساسه - بحسب نوعية القارىء - أولا نجاح للشاعر إذا هو لم ينجح فى نقلنا معه إلى ذلك الموقف الذى كان فيه ، واشراكنا فى فطرته التى نظر بها حين توفر للابانة والإنشاء)[1] .

أما وقد انتهينا من الدراسة الأولى ؛ فإننا ننتقل إلى الدراسة الثانية والأخيرة نجوس فى تركيز خلال نص القصيدة ، ونجوب فى إيجاز واف دروب الأفكار والمعانى ونكشف عن الظلال والأضواء والألوان المنعكسة عن بيانها المعبر ونغمها المؤثر وكيف ألف المتنبى بينها بموهبته الفذة ، وقريحته المعطاءة وإذا كانت قصيدة «الحصرى» «ياليل الصب متى غده» قد سميت «القصيدة المحظوظة» لأنه قد عارضها أكثر من مائة شاعر ؛ فإن ميمية المتنبى التى بين أيدينا جديرة بهذا الاسم أيضا ؛ لأنها حظيت بفكر الباحثين ، ولها مساحة واسعة فى ميدان النقاد والمفكرين ، ولعل الموقف الذى أخرجها وقوة الصلة بينها وبين قلب وضمير منشئها وسحر البيان المجلى للحقائق الفنيه فى محتواها وبالمسبار الذى يفرق بينها وبين غيرها هو السبب فى هذا الاهتمام والإعجاب .

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد ص ١١٧ .

وشيء آخر لا مرية فيه ، هو أن أى شاعر لا ينبه شأنه ولا يرتفع قدره ويخلد ذكره بكل ما قاله من شعر ، وإنما بقصيدة واحدة ، أو بعدة قصائد أو بيت واحد أو بعدة أبيات ، وقد لمح الشعراء أنفسهم هذا المعنى فقال حسان ابن ثابت :

وأن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وإنما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس إن كيسا وإن حمقا (١)

ومطلع القصيدة حتى البيت الحادى عشر إعلان صريح عن حبه لسيف الدولة وماهو فى ذلك الحب بمدع ، وما كان ليعلن عنه ، وما كان لعواطفه المكنونة أن تنتشر عليه ولقلبه المضنى أن يفزع ويضطرب ، لولا أن ساءه ما سمع وهاله ما رأى من ادعاء المتشاعرين المنافقين الذين زوروا الفضيلة ، وشوهوا وجه الحب وهو من أكبر الحقائق الإنسانية الكبرى ولبسوا أو ألبسوا أنفسهم ثيابا مستعارة ليؤدوا بها المشهد التمثيلى كلما دعت إلى النفاق دواعيه ثم يخرجون منها أو تخرج هى منهم متى خرجوا من مجلس سيف الدولة ، وتبقى فيهم أو تعود إليهم الحقيقة العارية من الوجوه الكالحة والألسنة المتوقحة .

والذى ساءه أكثر وأكثر ، وحول قلبه إلى موقد جمر وبدنه إلى يبس بعد نضارة وانطفاء بعد إشراق ، أن هذا الطلاء المزيف ، والمبهرج المستعار والنفاق المكابر قد انطلى على الأمير الحمدانى .

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/٨٣ .

وذلك هو الذى جعل المتنبى يبدأ قصيدته بحرف الندبة « وا » ليظهر كالنائحة حين تندب وتولول وتلطم ، وليكشف هذا الحرف بجرسه وإيقاعه الطويل عن نفس من نطق به وصاح ، ونفسه الذى يكاد ينشق غيظا ، ويتقطع هما وضيقا ثم يطيل النفس أكثر وأكثر حين يبدل من الياء فى « قلبى » ألفا ، ويستجلب هاء السكت ويثبتها فى الوصل ضاربا بقواعد النحو صفحا فيقول « واحر قلباه » لتكون هذه الكلمة وحدها مذكرة بما فيها من هاء السكت بحرارة الموقف الذى قيلت فيه إذا هى وصلت ، وندبا وملطمة إذا وقف عليها ، واكتفى بها .

والمتنبى لم يبدأ قصيدته على هذا النحو إلا ليندب حظه التعس ، ومجده العاثر حين رأى سيف الدولة قد يمم وجهه نحو من تفقد بهم المعانى والفضائل شرفها لأنها من وادى النفاق جاءت ، وأغدق عليهم خيره وبره ، وانصرف عمن أولاه محبة ، وجعل نفسه فداءه ، وأطلق فيه عنان قوافيه ، ولا يقرب منه أى شاعر ممن فضله سيف الدولة عليه أو يدانيه .

ولو كان تقسيم البر بقدر الإخلاص والحب لما ظفر هؤلاء بأدنى نصيب من بر سيف الدولة ، لأنه لا نصيب له فى قلوبهم ، ولا حب له إلا على ألسنتهم وليت سيف الدولة يعلم ذلك ، فيضع الأمور فى نصابها ، ويظفر المتنبى بأوفى حظ وأكبر نصيب ، ويبوؤون بالخزى والحسرة ، وكفى بالخيبة عقابا .

واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمى وحالى عنده سقم

مالى أكتم حبا قد برى جسدى ... وتدعى حب سيف الدولة الأمم

إن كان يجمعنا حب لغرته ... فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وزاد حب المتنبي لسيف الدولة تأصيلا وتعميقا ، أن سيف الدولة خير أخ لخير امرأة أحبها المتنبي ، وظل على حبه لها رغم فراقه ديار أخيها ، وبكاها بكاء مراً يوم ماتت ورثاها سنة ٣٥٢هـ بقصيدة تفيض حزنا وتسيل كلماتها أسى ولوعة ومنها : -

فليت طالعة الشمسين غائبة ... وليت غائبة الشمسين لم تغب

وليت عين التى آب النهار بها ... فداء عين التى زالت ولم تؤب

وهو لون من ألوان الوفاء النادر فى طبيعة المتنبي الرقيقة فى مواطن الرقة ، القوية العنيفة فى مواطن القوة والعنف ، فلم يشأ أن يدفن ذكرياته - حينما علم بموت خولة أخت سيف الدولة - فى قبر الماضى ، ولم يكن لما فعله معه سيف الدولة أدنى تأثير على مشاعره الصادقة ، وروحه النابضة ، ولسانه الناطق بكلمات الوداد .

ثم إن المتنبي وهو العربى الأصيل رأى سيف الدولة ، وهو يبلى بلاءه فيضا وكرما فى حالة السلم ، وضربا وإثخانا فى حالة الحرب :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت إليه والسيوف دم

فكان أحسن خلق الله كلهم ... وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم

ورآه وهو يخيف أعداء الإسلام وأعداءه ، حتى إنهم ليفرون منهزمين ويولون الأدبار مهطعين ، حين يعلمون بتوجهه إليهم ، وتحفزه على الخروج والانتقام منهم ، وفى هذا ظفر له من غير حرب ، أسف منه على فوتهم من يده دون أن تراق دماؤهم ، نعم من الله عليه وعلى جيشه لأنه وقى شر الحرب - وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم - وادخر ليوم شديد بلاؤه ، كثير راقة دمائه .

فوت العدو الذى يممته ظفر فى طيه أسف ، فى طيه نعم

وحسن التفسيم واضح فى البيت .

ثم تأخذ مخيلة المتنبى فى رسم الصورة الناطقة بآيات البيان فيقول :

إن الخوف الذى بثه سيف الدولة فى قلوب أعدائه ، والرعب الذى قذفهم به فزلزلوا زلزالا شديدا ، والمطاردة التى يتبع بها فلولهم بعد الهزيمة حتى لا تواريهم أرض ، ولا يسترهم جبل هو الذى جعلها انتصارات كثيرة لا نصراً واحداً ، وهزائم عديدة لا هزيمة واحدة ، وجيوشا وفيرة من الجنود والمغاوير ، والخوف من المهابة التى لا توصف والقائد المظفر الذى لا ينكسر .

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة مالا تصنع البهم

ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ألا يواريهم أرض ولا علم

أكلما رمت جيشا فانثنى هربا تصرفت بك فى آثاره الهمم

هلا لك هزمهم فى كل معترك وما عليك بهم عار إذا انهزموا

وقد كانت هذه المقدمة طبيعية فى هذا المقام الذى يجلو واقعا ، ويجلى موقفا وذلك لأمرين :

الأمر الأول : — أن المتنبى بستعيد شريط الذكريات والانتصارات فى نفس سيف الدولة ، وكأنه يقول له : إن الذى صحبك فى هذه الحروب ، ورأى منك كل هذا البلاء ، وأحبك ملء قلبه وسمعه وبصره ، وأنشد فيك ما لا يستطيعه الأدعياء ، وخلد ذكرى انتصاراتك بما لا يجزى عنه ملء الأرض ذهبا ، هو أولى الناس بحبك وعطفك .

والحديث عن سيف الدولة وطبيعته فى الحروب بعد الحديث عن أدعياء الحب الكاذب وأنصار الزور الملفق يُعد من باب التغطية بعد التجلية ؛ لأن أبا فراس الحمدانى وهو من شانئى المتنبى كان موجودا ، ويعلم أن المتنبى يعرِّض به ويعنيه هو ومن على شاكلته .

وعلى الرغم من هذا التعريض الواضح بأعداء المتنبى ، كان الكلام تبصرة وتذكرة لسيف الدوله بعاقبة أمره إن ظل على ما هو عليه من الولاه لبطانة السوء ، والاستماع لوشاياتهم ، وتمحيض النصح من أقوى أمارات الحب الصادق .

الأمر الثانى : أن هذه المقدمة التى جعلت سيف الدولة أذنا صاغية ، وحواس مبصرة ، هى التى شجعت المتنبى على أن يقول بعد ذلك ما يشاء وهو واثق النفس ، رابط الجاش ، ثابت الفؤاد .

وقد أفرغ المتنبى — فى تمرض وكبرياء — معظم ما انبثت به خواطره ، ونطقت به مشاعره فى ثلاثة عشر بيتا ، تبدأ بالبيت الثانى عشر ، وتنتهى بالبيت الثالث والعشرين ونقول : معظم ما انبثت به خواطره ، لأننا سوف نجده بعد ذلك فى القصيدة نفسها يفتخر ويبلغ فى فخره بنفسه قمة الكبرياء ، حتى يشعر القارىء أن الألفاظ استحالت شعلا متوهجة مستمدة من نيران قلبه المستعر ، وذلك حين يقول فى البيتين (٢٨ ، ٢٩) :

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وذلك أيضاً فى نهاية القصيدة فى الأبيات (٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧) حيث يقول :

شر البلاد بلاد لا صديق بها ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم
بأى لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك إلا أنه مقة ... قد ضمن الدر إلا أنه كلم

وتلك هى طريقة المتنبى التى عمل عليها ، وأخذ بأسلوب وطريقة من قبله فيها فهو يترك خواطره تنبث فى كل سانحة وبارحة ، وشاردة وآبدة ، ثم يترك لواعيته الباطنة مطلق الحرية فى ترويض كل ما استصعب والتوى ، ثم ينظم ما لان شموسه من المعانى ، وسهل قياده من الفكرة التى يريدها ، من غير استكراه أو قسر ، لأنه على يقين أن ما صعب وشمس الآن سوف يسهل ويلين فيما بعد ، ولئن تأتى الفكرة من منبعها الصحيح ، مسوقة فى أسلوبها الذى هو لها خير ألف مرة من أن تولد ولادة غير طبيعية .

وبعد نظم القصيدة كما تهيأ لها أسباب الإلهام ، تكون المرحلة الأخيرة وهى ترتيب الأبيات ، وتنزيلها منازلها ، بذوقه الدقيق ، وإحساسه الرقيق وهذى الأخيرة تزيد فى رونق شعره ومائه ، وتجعله دائما نضرا مشرقا ممتلئا معتدل الأجزاء والتقاسيم (والانتقال من معنى إلى معنى فى شعر أبى الطيب هو الموضع الذى ينبغى لنا الوقوف عنده ، وتمييزه ، والتبصر فى أوائله وأواخره إذ كان الانتقال فى شعره هو الذى يعينك على الكشف

عن أسرار قلبه ونفسه وحياته)(١) .

وهو في الأبيات الثلاثة التي انتقل من المقدمة إليها ، والمبدوءة بقوله :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

سلك مسلكا استخدم فيه الأسلوب الموجه الذي يحتمل أكثر من معنى بل يحمل المعنى وضده ، واستخدم فيه الرمز الصارخ الثاقب ، واستخدم فيه وهو يتحدث عن نفسه كل قواه العسكرية ، واحتشد كل طاقاته الفنية حتى وصل إلى المرحلة التي تسمى « جنون العظمة » بحيث يشعر القارئ له لكثرة الدعاوى المرسلة ، والقضايا المطروحة أنه لا ينفصل عن شعوره ، ولا يصور ما يحسه ، وإنما ينقل عن عقله ، ويستملي من مطارح خياله ، وما أراه إلا كذلك حين قال :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني   والضرب والطعن والقرطاس والقلم

وقد كان هـذا البيت ـ على اختلاف الروايات في قتله ـ سببا في ثباته أمام من خرجوا عليه حتى قتل ، فقد قال له غلامه حين رآه قد انهزم وتراءى له الفرار (أين قولك :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والضرب والطعن والقرطاس والقلم

فقال :

قتلتني قتلك الله ، ثم قاتل حتى قتل)(٢) .

---

(١) المتنبي لمحمود شاكر ص ٣٤٠

(٢) الصبح المنبي ص ١٠٠ ، والرواية التي أثبتناها للبيت منقولة عن الديوان ، أما رواية الصبح المنبي فهي : « والحرب والضرب والقرطاس والقلم » .

أما الأسلوب الذى يحتمل أكثر من معنى ، ويحمل فى الوقت ذاته على نحو آخر من التفسير المعنى وضده ، فمنه قوله :

ما أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم

قال أبو الفتح ابن جنى : (هذه شكوى مفرطة ، لأنه قال فى موضع آخر :

وما يوجع الحرمان من كف حارم كما يوجع الحرمان كف رازق

وإذا كان عدلا فى الناس كلهم إلا فى معاملته فقد وصفه بأقبح الجور)[1] .

وهذا الذى قاله أبو الفتح صحيح باعتبار المقابلة ، فإن أعدل يقابلها أظلم ، فإذا كان سيف الدولة أعدل الناس فى معاملته لهم ؛ فإن القول المتنبى : إلا فى معاملتى يعنى أنه أظلم الناس فى معاملته له ، وهو - والله أعلم - ما يقصده المتنبى من وراء قوله ، وهو أقبح الجور كما ذكر أبو الفتح .

والذى جعله يقول ذلك غير آبه ولا خائف من بطش سيف الدولة أمران :

أولهما : ما يحتمله الأسلوب من وجه آخر من التفسير فإن « أعدل » بصيغة التفضيل يقابلها « عدل » وذلك يعنى أن أبا الطيب حظى بأقل مما حظى به غيره ، فإذا وصل عدل سيف الدولة مع الناس منتهاه ، وبلغ أقصى مداه ، فإنه وصل إلى أبى الطيب فى حدود ما يدل عليه المصدر

---

(١) انظر هامش ديوان أبي الطيب بشرح أبي البقاء العكبري ٣/٣٦٦ .

من معنى ، وهو بذلك غير ظالم والمنفى غير مظلوم ، وإن كان ذلك دون ما يطمح إليه من منزلة ومكانة .

ثانيهما : ـ الشطر الثانى من البيت (فيك الخصام وأنت الخصم والحكم) فإنه من الجوامع التى تحتاج إلى شرح كثير ، وتفسير كبير ، ومعناه فى أخصر عبارة : لو أن غيرك ظلمنى لخاصمته إليك ، ولكن ماذا أفعل وفيك الخصام وأنت الخصم والحكم فأنا أشكوك إلى نفسك .

أما استخدامه لأسلوب الرمز الواضح من غير إلغاز ولا تعقيد ، ولا تعمية وإبهام فهو قوله :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فهو يعنى أبا فراس الحمدانى (فعلم أبو فراس أنه يعنيه ، فقال : ومن أنت يادعى كندة حتى تأخذ أعراض الأمير فى مجلسه)[1] .

والرمز الذى يعنيه الأسلوب أعم وأشمل من أن يخص إنسانا بعينه من المتشاعرين الذين يحسبون من الشعراء وليسوا منهم ، كما يحسب السقم صحة والورم سمنا . والمتشاعرون الذين يعنيهم المتنبى ـ من وجهة نظرى ـ هم الفحول الذين ينافسونه ولديهم من البصر الشعرى والشعورى ما ينفذون به إلى مكامن القلوب ، وأغوار النفوس ، بأصح طبع ، وأسلم ذوق ، ولا وأفصح بيان .

وتلك هى العظمة الحقيقية ، لأن الفروق بين النوابغ ، وكبار الملهمين لا يدركها ولا يميز بينها إلا النفوس الحساسة الممتازة التى تميز الخبيث

---

(١) الصبح المنبى ص ٤٦ .

الفكريه الدقيقة ، والكميات الوجدانية الرقيقة ، والوعاء البيانى الذى احتواها ، تميز من أمد بالطبع ، وأعين بالذوق ، وأوتى قوة الامتلاء الروحى أمثال سيف الدولة الحمدانى ، ولأن المتنبى لا يصارع الضعفاء ، ولا ينافس المهازيل وإلا فقد الميزان معناه واختلفت جهة الكلام .

ولأن المعنى لو حمل غير هذه الدلالة التى قلناها لكان طعنا فى سيف الدولة نفسه ، وفى مجلسه وأنه لا يميز بين الجيد والردىء ، حتى غاص مجلسه بالطم والرم .

وهو ما لا يحتمله سيف الدولة من المتنبى ، حتى مجرد دعوى دون دليل يؤيدها أو حقيقة تسندها ، لأنها حينئذ تكون على حد قول الشاعر :

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك عن قول إذا قيلا[1]

لقد تحمل سيف الدولة من المتنبى قوله :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم[2]

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

ففضل نفسه على من ضم مجلس سيف الدولة ، وفيهم سيف الدولة نفسه وكان سكوت سيف الدولة اعترافا منه بأولية المتنبى ، وأولويته فى حمل لواء أعظم شاعر أنجبته العربية ، فملأ الدنيا ، وشغل الناس (وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ومهما وصف به ، فهو فوق الوصف ، وفوق الإطراء[3] .

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق ١/٢٧ .

(٢) هذا البيت ساقط من نسخة الديوان بشرح أبى البقاء العكبرى ، وقد نقلناه من رواية الصبح المنبى ، وانظر الصبح المنبى ص ٤٦ .

(٣) السابق ص ١٠٣ .

وكان أبو العلاء المعرى يذكر الشعراء بأسمائهم مجردة من أى لقب أو كنية ، فإذا وصل إلى المتنبى ذكره بلقب «الشاعر» تعظيما له واكبارا ، وكان إذا سمع قوله :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

قال : إياى عنى .

ولكن سيف الدولة لم يتحمل منه قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

لأنه تجاوز حده ، وأعطى نفسه كل شىء ، وسلب الأمير الحمدانى كل شىء .

ومن أجل هذا اهتبلها أبو فراس فرصة ليعبىء نفس سيف الدولة ، ويشحنها غيظا من المتنبى ، فقال له : (وماذا أبقيت للأمير إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة) .

وقد كان له ما أراد على النحو الذى سلف ذكره من قبل ؛ فضربه سيف الدولة بالدواة التى بين يديه .

وأما قوله فى وصف جواده :

رجلاه فى الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم

فقد أعجب به المتقدمون حتى قال أحدهم فى معرض كلامه عن المتنبى : (وإلا فهاتوا لأى شاعر شئتم جاهلى أو إسلامى مثل قوله فى صفة الفرس

رجلاه فى الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم

أليس هذا أبلغ من قول القائل :

درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل (١)

لقد أبدع المتنبى أما شاء وأغرب وأفصح عن الغرض وأعرب) .

وهو وإن كان من نوع النقد الاستحسانى المدعوم بذكر ما يشابهه أو يشترك معه فى المعنى من غير ذكر لضروب الصرفة والعوائق التى أوجدت كثيرا من الفوارق الفنية والبيانية ؛ فإنه قد ترك للباحثين مجالا للموازنة ، أو لاستخراج الفرق البيانى .

وبيت المتنبى يحمل فى شطره الأول إيحاء قويا بخفة وسرعة يدى الفرس ورجليه حتى لكأنهما يد واحدة ، ورجل واحدة ، واستواؤهما رفعا وخفضا عند الجرى دليل آخر على القوة التى من نتائجها هذه الرؤية الحقيقية التى شكلت عنه الصورة البيانية الحسية ، أما الجرى المتهالك ، والسرعة العادية فلا تعطى هذه الرؤية ولا توحى بهذه الصورة .

الشطر الثانى يحمل إسناداً مجازيا يدل على أن هذه الحركة ليست صادرة عن طبيعة هوجاء غير منظمة ، وإنما كأنها صادرة عن إرادة عاقلة انتقلت

---

(١) البيت لامرىء القيس فى معلقته المشهورة ، وفى رواية الديوان « تقلب كفيه » بدل « تتابع كفيه » وقبله :

يطير الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل

ودرير : خبر لمبتدأ محذوف ومعناها سريع ، والخذروف : لعبة يلعب بها الصبيان ، لها صوت وجعل الخيط موصلا ليكون أسرع لدورانه لخفته من كثرة الدوران وانظر ديوان امرىء القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢١

عدواها من الفارس إلى الفرس نفسه فأغنت عما تريده القدم عند الاستحثاث والكف عند طلب التوقف .

والمجاز العقلى فى قوله : « ما تريد الكف والقدم » أغنى عن الكلام الكثير الذى لا يسد شىء مسده لو أن الكلام جاء على سبيل الحقيقة .

ثم إن الشطر الثانى يحمل معنى التصديق للدعوى المسوقة فى الشطر الأول فبعد أن قال : هما من السرعة رجل واحدة ويد واحدة على سبيل التشبية البليغ وهذا المعنى التشبيهى لا ينتظم ، ولا يسوغ من حيث الصحة إلا باعتبار اليدين والرجلين معا حتى تستوفى الصورة معنى الكمال لأنها وليدة الواقع المشاهد لكل ما تناهت سرعته .

كر بعد ذلك فقال : «وفعله ماتريد الكف والقدم» وكأنهما قد صارتا حقيقة لاشك فيها يداه يد واحدة ورجلاه رجل واحدة (أى أنه يطعن ، فتقع رجلاه معا كأنهما رجل واحدة ، وكذلك تقع يداه فكأنهما يد واحدة ، وفعله ما تريد الكف إذا ضربته د والقدم إدا ركضته .

يقول : فهو يعنى فارسه أن يضربه بسوط ، أو يركضه بعقبيه ، ليستدر بذلك جريته ، ويستمرىء مشيته)[1] .

وهذا كله لا نجده فى بيت امرىء القيس ، لأنه يحمل تشبيها حسيا ، لا ترفعه درجة تصويره وانتزاعه من واقع البيئة شبرا فى منازل البيان الرفيع الذى لا يخاق الشاعر الحق إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه .

أما باقى القصيدة من البيت الرابع والعشرين إلى نهاية القصيدة فيحمل

---

(١) شرح المشكل من شعر المتنبى ٢/٢٠١

معانى كثيرة منها : معنى الرجاء فى عدم مد رشاء الوشاية للحاقدين الواشين حتى يدوم الوصل فى كنف الكرم العربى الأصيل ، والبقاء فى نفح الولاء الخالص والعطاء الجزيل :

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شىء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم

ومعنى الكبرياء الذى ضاق بالصبر سبيلا لمداواة الجروح والقروح فلم يبق أمامه إلا الرحيل .

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم

ومعنى ما يخلفه هذا الرحيل من خسارة تعود على سيف الدولة لا على المتنبى وتأتى نتائج لها صفة الثبات والديمومة لأنها تنطبق على كل من قصر أو فرط فيما ينبغى التفريط فيه أو يعد التفريط فيه جريمة يبقى أثرها ، ويلعق على طول الزمان مر صبرها ، وتدار على الألسنة كأس حديثها .

لئن تركن ضميرا عن ميامننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون هم

ومعنى التنغيص إذا فقدت الحياة معانى السرور والهناءة بفقد الصديق المؤانس .

وفقد الكرامة بسبب جمع المال وما يجره من المذلة والمعابة :

شر البلاد بلاد لا صديق بها ... وشر مايكسب الإنسان مايصم
وشر ما قنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

وهذه الأبيات من شعر الحكمة الذى يفرزه عقل دقيق منظم فى أسلوب

بيانى ممتلىء بصوب المعنى متدفق ببلاغة التأثير (وسر المتنبى كان فى ثلاثة أشياء : فى جهـــازه العصبى العجيب الذى لا يقل فى رأيى عما فى دماغ شـكسبير ، وفى ممـــدوحه الأديب الملك الذى ينزل من هذا الجهاز منزلة المهنـدس الـكهربائى من آلة عظيمة يديرها بعلم ، ويقوم عليهـا بتدبير ، ويحوطها بعناية ثم فى أفق عصره المتألق بنجوم الأدب التى لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو فى قدرها ، ولا يتميز فيها إلا ما هو أكبر منها ولا يتركها كالمنطفئـة إلا شمس كشمس المتنبى تتفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية)[1]